أحداث السيرة النبوية
من خلال سورة التوبة

تأليف: ذ. الطيب ليبوركي

تقديم: ذ. ياسين بوفوس

الطبعة الأولى

2026

ذ. الطيب ليبوركي

أحداث السيرة النبوية
من خلال سورة التوبة

الطبعة الأولى 2026

عنوان الكتاب:

أحداث السيرة النبوية من خلال سورة التوبة

المؤلف: الطيب ليبوركي

الطبعة الأولى : 2026

رقم الايداع القانوني:2026MO0915

ردمك : 978-9920-25-764-0

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين، وجعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، ووفق من بعده أهل العلم لنشر فضائل سيرته، وبيان آيات كتابه، والصلاة والسلام على من بلغ الرسالة، وأقام الدين بالحق والعدل.

أما بعد؛ فإن كتاب الأستاذ الطيب ليبوركي، الموسوم بـ «أحداث السيرة من خلال سورة التوبة»، يعد إضافة نوعية في ميدان دراسة السيرة النبوية، إذ جمع فيه بين التحليل القرآني الدقيق للأحداث وبين السياق التاريخي والاجتماعي الذي عاشه النبي ﷺ وأصحابه. ولعل أهم ما يميز هذا العمل أنه لا يقتصر على سرد الوقائع التاريخية، بل يعمد إلى تصنيف الفاعلين في ضوء القرآن الكريم، مبينا مواقفهم من الدعوة الإسلامية؛ من مؤمنين صدقوا وجاهدوا، إلى مشركين وأهل كتاب ومنافقين،

مع عرض جزائهم في الدنيا والآخرة وفق ما أورده النص القرآني في سياق السورة.

ويتميز الكتاب بـ:

1. الدراسة القرآنية، إذ يأخذ سورة التوبة محورا أساسيا لتحليل الوقائع، متتبعا الآيات في سياقها الزمني والبياني، ومبينا الحكمة من ذكرها، وما تعكسه من سلوكيات الناس تجاه دعوة الإسلام؛

2. الدقة التاريخية، فقد اعتمد المؤلف على مصادر السيرة المعتبرة، مع الاستشهاد بالأحداث الكبرى كغزوة بدر وأحد والخندق وتبوك، مبينا ما رافق ذلك من أحداث؛

3. القيمة التربوية والأخلاقية، إذ يظهر الكتاب كيف كانت مواقف الفئات المختلفة، وكيف يمكن للقارئ استخلاص الدروس والعبر من سيرة النبي ﷺ، في الأخلاق والوفاء بالعهد والصبر على البلاء والجهاد في سبيل نصرة دين الله...

وبهذا، فإن كتاب «أحداث السيرة من خلال سورة التوبة» يقدم للقارئ فرصة ثمينة لفهم التفاعل بين الآيات القرآنية والسيرة النبوية، ويتيح من خلال ذلك تحليلا متكاملا لشخصيات الأحداث الكبرى، وتصنيفها، واستخلاص الدروس والعبر المستفادة منها ومن موقفها .وهو بذلك يصلح أن يكون مرجعا لكل دارس، ولكل مرب يريد أن يربط بين القيم القرآنية والواقع التربوي والاجتماعي، ولا سيما في سياق العمل الإسلامي والتنشئة الصالحة.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب قارئه، ويجعل علمه نافعا، وسيرة نبيه ﷺ قدوة، وأن يوفق صاحب الكتاب لما فيه خير الأمة في الدنيا والآخرة.

ذ.ياسين بوفوس

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعامين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد؛

فإن دراسة السيرة النبوية في عصرنا الحاضر ذات أهمية بالغة، لكونها تحفظ للأمة الإسلامية شخصيتها المستقلة، وتوجهها الوجهة التي ينبغي أن تسير فيها، فتتبع آثار نبيها، تسعى لما سعى إليه، وتحمل الهم الذي جاهد من أجله حتى لقي ربه، وتركه أمانة في عنقها، ولعل هذا الدور الحضاري الذي تقوم به السيرة النبوية في واقع المسلمين، هو الذي جعل بعض العلماء المعاصرين يدعون إلى تنقية هذه السيرة من الروايات الواهية، والتفسيرات المادية، واستخراجها من مصادرها الأصلية، صافية نقية، حتى تنهل منها الأمة في جميع مناحي الحياة.

ولهذه الغاية فقد ذهب فريق من العلماء إلى العناية بمرويات السيرة النبوية، في محاولة لتصفيتها وإخضاعها لقواعد المحدثين ولمنطق الشرع الحكيم، في حين ذهب فريق آخر إلى العناية بالآيات القرآنية التي تحدثت عن السيرة النبوية، وذلك لكون القرآن الكريم مسلم الثبوت ﴿لاَّ يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]. فهو إنما نزل على صاحب هذه السيرة عليه الصلاة والسلام، في زمن حدوث أحداثها وفي المواطن التي وقعت فيها هذه الأحداث، فهو إذن أصدق شاهد على مجرياتها، ومن أهم ما ألف في هذا المجال كتاب "سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن" للأستاذ محمد عزة دروزة، وكتاب "السيرة النبوية من القرآن الكريم" للدكتور عبد الصبور مرزوق.

فهذان الكتابان وإن كان لهما السبق في هذا الميدان إلا أن القرآن الكريم ما يزال يحتاج إلى مزيد من الاستقصاء،

[1] سورة فصلت الآية 41.

وذلك قصد تتبع آياته بتوظيف القواعد الأصولية لاستنباط كل ماله ارتباط بالسيرة النبوية، بما هي أحداث ودروس وعبر، بالإضافة إلى النماذج البشرية التي رصدها القرآن للتأسي بها أو لأخذ العبرة منها، وهذا يستوجب أن تخصص كل سورة من سور القرآن الكريم بالبحث والدراسة، حتى إذا اجتمعت المادة أمكنت الاستفادة منها؛ على مستوى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أو على مستوى تأصيل السيرة النبوية، فرب دلالة آية رجحت رواية أو حكمت عليها بالبطلان.

وفي هذا الإطار يندرج هذا البحث المتواضع تحت عنوان "أحداث السيرة النبوية من خلال سورة التوبة"، والذي دفعني لاختيار هذه السورة هو تأخرها الزمني واشتمالها على أحداث لم ترد في غيرها من السور، بالإضافة إلى عدة مزايا نوردها في مكانها من هذا البحث بحول الله وقوته.

أما بخصوص المنهج المتبع فهو طريقة التقرير العلمي المندرجة ضمن المنهج الوصفي[1]، حيث عملت -قدر الإمكان- على استخراج ما في هذه السورة من الآيات القرآنية التي لها علاقة بجانب من جوانب السيرة النبوية، ورتبتها وفق هذه الجوانب بناء على تصميم مكون من فصلين؛ فأما الفصل الأول فينقسم بدوره إلى مبحثين؛ يتحدث المبحث الأول عن علاقة سورة التوبة بالسيرة النبوية، في حين يعرض المبحث الثاني أهم الأحداث التي تناولتها السورة، أما الفصل الثاني؛ فيتحدث عن أصناف الناس الذين تعامل معهم الرسول ﷺ، والذين كانوا أطرافا في هذه الأحداث وفي مجريات السيرة عامة، فبالنسبة للمبحث الأول من هذا الفصل؛ فيتضمن تصنيف الناس من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على موقفهم من الإسلام وموقف الإسلام منهم، مع ذكر بعض الأحداث الجزئية المرتبطة بكل صنف كما عرضتها السورة، أما المبحث الثاني

[1] بناء على ما ذكره الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله في كتابه "أبجديات البحث في العلوم الشرعية"، مبحث المنهج الوصفي التقرير العلمي ص 70.

فيتحدث عن بيئة الرسول ﷺ وتقسيم الناس بناء عليها، ثم تأتي الخاتمة في نهاية البحث.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه إذا اجتمعت عدة آيات في تقرير معنى واحد، فإني أختار أكثرها دلالة على المعنى، مع الإشارة إلى باقي الآيات في الهامش وذلك تجنبا للإطالة، إلا أنه إذا اجتمعت عدة معاني في آية واحدة فإنه يتم تكرارها لضرورة ذلك، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد وأن يلهمنا الحق والرشاد.

الفصل الأول:

سورة التوبة وأهم ما ورد فيها من أحداث السيرة

المبحث الأول: علاقة سورة التوبة بالسيرة النبوية

المبحث الثاني: أهم الأحداث الواردة في سورة التوبة

المبحث الأول: علاقة سورة التوبة بالسيرة النبوية

لتحديد علاقة سورة التوبة بالسيرة النبوية لابد من دراسة هذه العلاقة من خلال منظورين أساسين؛ أحدهما عام وهو ما تشترك فيه معظم سور القرآن الكريم بما فيها سورة التوبة، والآخر خاص وهو ما انفردت به هذه السورة من خصائص ومميزات بوأتها مكانة خاصة في هذا المجال.

فالذي يتأمل القرآن عامة يجد أنه تعرض لمعظم جوانب سيرة الرسول ﷺ في أطوارها المختلفة، قبل البعثة وبعدها، وذلك مبثوث في ثنايا سوره وآياته، حيث أشار بعضها إلى نشأته ويتمه، كما هو الحال بالنسبة لسورة الضحى، وتحدث بعضها عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى المشركين في سبيل إبلاغ دعوته، وهذا شأن أغلب السور المكية كالفرقان والإسراء والمدثر، في حين تحدثت بعض السور المدنية عن بعض المعارك الحربية التي خاضها الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة؛ كغزوة بدر في سورة الأنفال، وأحد في سورة آل عمران، والخندق في سورة الأحزاب، وصلح الحديبية في سورة

الفتح، وبني النضير في سورة الحشر وغيرها كثير، كما أن منها ما تحدث عن بعض معجزاته عليه الصلاة والسلام، وعلى أخلاقة الحميدة التي زكاها الله سبحانه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

فلا شك إذن أن القرآن الكريم قد رسم هيكل السيرة النبوية كاملا بأموره الأساسية، وعدد غير قليل من الأحداث الجزئية، وهذا أمر طبيعي لأنه كان الموجه الأساسي لتصرفات الرسول ﷺ، حتى قالت أم المؤمنين عائشة ﵂ "كان خلقه القرآن"[2]. وهذا لايعني أن نستغني عن مرويات السيرة النبوية الصحيحة، وإنما الأولى أن تكون خادمة للقرآن ومبينة لمجمله كما هو حال السنة عامة، لا أن تكون هي الأصل ثم يستشهد لها بالقرآن لتأكيد ثبوتها وصحتها فحسب، لأن سمة الثبوت القطعي ليست السمة الوحيدة التي تمتاز بها الآيات القرآنية

[1] سورة القلم الآية 4.

[2] أورده ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ونسبه للإمام أحمد وهو في المسند من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

عن مرويات السيرة، وإنما هناك مميزات[1] غيرها خصوصا في جانب المضمون وتتمثل فيما يلي:

أولا: أن القرآن الكريم يتجاوز ظواهر الأحداث والتصرفات لينفذ إلى بواطن النفوس، فيحدثنا عن الدوافع التي كانت وراء هذه الأحداث والأهداف التي ابتغيت بها، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ كحادثة مسجد الضرار وتبرئت المتهمين في حادثة الإفك، كما أن القرآن "انفرد بتبيان حالة النبي صلى الله عليه وسلم النفسية وتصوير خلجات نفسه في كثير من المواطن ولولا القرآن الكريم لما كدنا نعرف شيئا عن ذلك"[2]؛

ثانيا: أن القرآن الكريم لا يكتفي بذكر الأحداث فحسب، بل يزيد عن ذلك تقييمها والحكم عليها مع ربطها بالدروس والعبر المستخلصة منها؛

[1] ذكرت بتفصيل في مقدمة كتاب: السيرة النبوية في القرآن الكريم.

[2] مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص 39.

ثالثا: "أن الحدث الذي ترويه كتب السيرة يبقى مجرد حدث مرتبط بزمانه ومكانه وأشخاصه، لكنه عندما يروى في القرآن الكريم يتحول إلى درس كبير يتجاوز ظروف الحدث مكانا وزمانا وأشخاصا إلى حيث يصبح قضية عامة، ومبدأ يعامل به كل المسلمين في كل زمان وكل مكان متى تشابهت ظروفهم وظروف هذا الحدث الخاص"[1]؛

رابعا: أن العرض القرآني للسيرة النبوية يمتاز بالأسلوب البياني المعجز الذي يختزل أكبر عدد من المعاني في أقل عدد من الألفاظ، ونأخذ على سبيل المثال وصف الله تعالى لحال المسلمين عندما أحاط بهم المشركون في غزوة الأحزاب، حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الاَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ لْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّه الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيداً﴾[2].

[1] السيرة النبوية في القرآن الكريم، ص 18.

[2] سورة الأحزاب الآيتان: 10-11.

ويبقى أن نشير إلى كيفية استخلاص السيرة من القرآن، وهو أمر يمكن الحديث فيه عن صنفين أساسيين من الآيات؛ فأما الصنف الأول فهو تلك الآيات القرآنية التي تحدثت عن السيرة النبوية والتي يتوقف فهمها على استحضار سبب نزولها أو ما من شأنه أن يربطها بالواقعة زمنيا ومكانيا، ونذكر على سبيل المثال ما جاء في شأن غزوة أحد، حيث قال سبحانه:﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْاَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُومِنِينَ﴾[1]، فهذه الآية مثلا لابد من استحضار سبب نزولها لكي نجزم في معناها، وهناك نوع آخر من الآيات لا يتوقف استخراج السيرة منها على ذلك، حيث تكون مواضيعها مجردة، ونمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ

[1] سورة آل عمران الآية 152.

هَـٰذَا الرَّسُولِ يَاكُـلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِى الاَسْوَاقِ لَوْلآ أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَـكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً اَوْ يُلْقىٰٓ إِلَيْهِ كَنز اَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَاكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلًا مَّسْحُوراً﴾[1]، فنستخلص من هذه الآيات -بصرف النظر عن سبب نزولها- ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من الإعراض والتكذيب من قومه، وما رموه به من بهتان لصد الناس عنه، كما نستنتج منها مخالطته للناس في أسواقهم، بالإضافة إلى سمات بشريته عليه الصلاة والسلام، واستغراب الكفار من أن يكون هذا الرسول بشرا مثلهم، فهذه المعاني لا يتوقف استخلاصها من هذه الآيات على استحضار سبب نزولها، وإن كان هذا الأخير يزيدها بيانا ووضوحا.

ولاستخراج السيرة النبوية من هذين الصنفين من الآيات، لابد من الاحتكام إلى الأدوات التي وضعها علماء الأصول لفهم النص الشرعي، وفي مقدمتها طرق الدلالة من العبارة

[1] سورة الفرقان الآية 7-8.

والإشارة، بالإضافة إلى أساليب اللغة العربية وما تدل عليه ألفاظها مفردة ومركبة.

وهذا ينطبق كذلك على سورة التوبة، أي أنه وردت فيها أحداث للسيرة النبوية، بالأساليب نفسها، وأن خطابها القرآني يتميز بنفس المميزات المذكورة، إلا أن ما تنفرد به هذه السورة هو أنها من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد روى البخاري عن البراء ﷺ أن "آخر سورة نزلت براءة"[1] وبناء على "ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك؛ يتبين أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة ولكنها لم تنزل دفعة واحدة، ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في خلال العام التاسع، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل، المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام، والمرحلة الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها، والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها، أما

[1] صحيح البخاري كتاب التفسير، باب قوله "براءة من الله ورسوله".

مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج في ذي القعدة أو في ذي الحجة، وهذا على الإجمال هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه"[1].

فإذا كانت سورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، فهذا يعني أنه وردت فيها أحداث لم ترد في غيرها من السور التي سبقتها من حيث النزول، وذلك مثل غزوة حنين وغزوة تبوك، بالإضافة إلى أن السورة فصلت في ذكر الطوائف التي تعاملت مع النبي ﷺ إما نصرة له ولدعوته، كما هو حال المؤمنين بما فيهم المهاجرون والأنصار، وإما عداوة له ولدعوته، كما هو الشأن بالنسبة للمشركين وأهل الكتاب، بالإضافة إلى المنافقين المذبذبين بين إظهار النصرة وإعلان العداوة.

وعلى الجملة فقد تضمنت هذه السورة "أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض، كما

[1] في ضلال القرآن، سورة التوبة، (1564/10).

تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته وتحديد قيمه ومقاماته وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفا دقيقا مصورا مبينا "[1] ومفصلا.

[1] المصدر نفسه (1564/10)

المبحث الثاني: أهم الأحداث الواردة في سورة التوبة

المطلب الأول: حادثة غار ثور.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَ اَخْرَجَهُ الذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغار إِذْ يَقُولُ لصَاحِبِه لاَ تَحْزَنِ اِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلِي وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيز حَكِيم﴾[1].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق معاتبة الحق سبحانه للمتخلفين عن رسوله ﷺ في غزوة تبوك، ومعلوم أن هذه الغزوة وقعت في السنة التاسعة للهجرة، إلا أن الآية أشارت إلى حدث عظيم وقع قبل الغزوة بسنوات؛ وهو الهجرة النبوية التي كانت حدثا فاصلا في سيرة الرسول ﷺ، حيث انتقل بموجبه المسلمون من مرحلة الضعف والاضطهاد إلى مرحلة

[1] سورة التوبة الآية 40.

القـوة والجهـاد، ومـن ثـم جعلـه الله عبرة بنصـرته لرسـوله وإن تخلف عنه المتخلفون ورغب عنه الراغبون.

والمعنى العام للآية يقول "إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان"[1] قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى ﴿إلا تنصروه﴾ أي تنصـروا رسـوله فـالله ناصـره ومؤيـده وكافيـه وحافظه كما تولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غـار ثـور ثلاثـة أيـام ليرجـع الطلـب الـذين خرجـوا في آثـارهم ثـم يسـيروا نحـو المدينـة فجعـل أبـو بكـر ﷺ يجـزع أن يطلـع علـيهم أحـد فـيخلص إلى رسـول الله ﷺ منهم أذى، فجعـل النبي صـلى عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟" -كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا

[1] صفوة التفاسير (468/1).

ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟"

أخرجاه في الصحيحين، ولهذا قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي تأييده ونصره عليه، أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين، وقيل على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلِى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله وقوله: ﴿والله عزيز﴾ أي في انتقامه

وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله[1].

المطلب الثاني: غزوة حنين.

الفرع الأول: المرحلة الأولى من المعركة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[2].

تتحدث هذه الآية عن بداية غزوة حنين حيث كانت الغلبة للعدو بعد كمين نصبوه للجيش الإسلامي، فتفرق المسلمون ولم يثبت إلا النبي ﷺ وقلة قليلة من أصحابه رضي الله عنهم، يقول تعالى﴿لَقَدْ نصر كُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، هذا

---

[1] تفسير ابن كثير (437/2).

[2] سورة التوبة الآية 25.

امتنـان مـن الله عـز وجـل على عبـاده المـؤمنين بالنصـر على أعدائهم في مشاهد كثيرة وحروب عديدة ومن أعظمها غزوة بدر وبني قريظة وخيبر وفتح مكة﴿وَيَوْمَ حُنَيْـنٍ﴾ أي ونصركم يوم حنين وهو واد معروف بين مكة والطائف، وتسمى غزوة هوازن وثقيف، وكانت في شوال عقب رمضان الذي وقع فيه فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، وكان عدد المسلمين اثنا عشر ألف مسلم، وعدد الكفار أربعة آلاف"[1] ﴿إِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. و"روى بن بكير في (زيادات المغازي) عن الربيع بن أنس قال: قال رجل يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة"[2] "وروى الإمام مسلم عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة ؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه انطلق

[1] صفوة البيان لمعاني القرآن (316/1).

[2] فتح الباري (27/8).

أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا"[1].

الفرع الثاني: المرحلة الثانية و انتصار المسلمين

قال الله عز وجل﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]

تدل هاتان الآيتان على أن النصر في النهاية كان من نصيب المسلمين بعد أن أنزل الله السكينة عليهم وأمدهم بجنود من عنده، وروى مسلم من حديث البراء -السابق ذكره- قال: "... فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول أنا النبي لا كذب

[1] رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، الحديث الخامس.

[2] سورة التوبة الآيتان 26-27.

أنا ابن عبد المطلب اللهم نزل نصرك"[1]، "فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين"[2].

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ﴾، "أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم: ﴿ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري، ﴿وَذَلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ﴾[3]، أي وذلك عقوبة الكافرين بالله، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ﴾، أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام، وهو إشارة إلى إسلام

[1] رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، الحديث الخامس.

[2] رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، الحديث الثامن.

[3] سورة التوبة الآية 26.

هــوازن، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، أي عظــيم المغفــرة، واســع الرحمة"[2].

الفرع الثالث: الدرس المستخلص من الغزوة

قال تعالى: ﴿إِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْـن عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[3].

إن الـدرس الـذي قدمتـه غـزوة حنـين للمسـلمين يتكامـل ويـتمم الـدرس الـذي قدمتـه مـن قبلهـا غـزوة بـدر، "فـإذا كانـت وقعـة بـدر قـررت للمسـلمين أن القلـة لا تضـرهم شـيئا في جنـب كثرة أعـدائهم إذا كـانوا صـابرين ومتقـين فـإن غـزوة حنـين قـد قـررت لهـم أن الكثرة أيضـا لا تفيـدهم إذا لـم يكونـوا صـابرين ومتقين.

فقد كان المسلمون في بدر أقل عددا منهم في أي موقعة أخرى مع ذلك فلم تضرهم القلة شيئا بسبب صدق إسلامهم

---

[1] سورة التوبة الآية 27.

[2] صفوة التفاسير (463/1).

[3] سورة التوبة من الآية 25.

ونضج إيمانهم وشدة ولائهم لله ولرسوله، وكان المسلمون في حنين أكثر منهم في أي موقعة أخرى خاضوها من قبل، ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئا، بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الإيمان بعد في نفوسها، ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد في أعماق أفئدتها"[1].

فالنصر إذن لا يتعلق بكثرة الجيش وقلته، وإنما يرتبط بنوعية هذا الجيش، ومدى تحقيقه العبودية لله عز وجل، والتوكل عليه، مع بذل الجهد في اتخاذ الأسباب المأمور بها شرعا، ثم إن النصر من بعد ذلك يأتي من عند الله وهو خير الناصرين.

المطلب الثالث: غزوة تبوك أو العسرة.

لقد تطرقت سورة التوبة إلى معظم جوانب غزوة تبوك وإن لم تسمها بهذا الاسم -وكما أسلفنا- فقد نزل قسم من هذه السورة قبل الخروج للغزوة، وقسم آخر في أثنائها ثم نزل القسم

[1] فقه السيرة لسعيد رمضان البوطي، ص 289.

الثالث بعد الرجوع منها، وهذا يعني أن السورة غطت معظم مراحل هذه الغزوة التي هي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل التحاقه بالرفيق الأعلى، وسندرس هذه الغزوة بناء على فرعين أساسين يتحدث الأول عن الظروف التي مرت فيها الغزوة، في حين يتحدث الفرع الثاني عن الذين تخلفوا فيها عن الرسول ﷺ بما فيهم المعذورون شرعا والمنافقون بالإضافة إلى الثلاثة الذين تابوا فتاب الله عليهم.

الفرع الأول: ظروف الغزوة.

أولا: ما جاء في سببها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

[1] سورة التوبة الآية 123.

لقد ذكر المفسرون وأهل السير لهذه الغزوة أسبابا عديدة تختلف من حيث القوة والضعف، وإن كان أقواها وأصحها سببين أساسيين؛ الأول هو أن سبب الغزوة كان استجابة إيمانية من المسلمين لفريضة الجهاد في سبيل الله وهو ما تؤيده هذه الآية. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: "أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا، الأقرب فالأقرب، إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة (...) وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه الصلاة السلام"[1]. وأما السبب الثاني فهو أن الروم جمعوا جموعا من الناس للهجوم على المدينة والقضاء

[1] تفسير ابن كثير (488/5).

على الدولة الناشئة، خصوصا وأن المسلمين قد أخذوا منهم وانتقصوا من هيبتهم في غزوة مؤتة التي وقعت قبل تبوك بسنة، وفي هذا المعنى يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله: "وكان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا، أجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم"[1].

إلا أنه يمكن الجمع بين السببين وإن كان السبب الأول أقوى لكونه يستند إلى آية قرآنية، وأنه لو لم يكن هناك سبب لطبق الرسول ﷺ هذه الآية بقتال الذين يعتدون على المسلمين وهم الروم بعد أن فرغ من جزيرة العرب، ويأتي السبب الثاني كتيسير وتدبير رباني لتطبيق هذه الآية، وقد وعد الله عز وجل

[1] فتح الباري (111/8).

نبيه بذلك حيث قال سبحانه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[1]، والله تعالى أعلم وأحكم.

ثانيا: ما جاء في توقيتها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[2].

لقد جاءت هذه الآية في سياق فضح الأعذار التي قدمها المنافقون للتخلف عن رسول الله صلى عليه وسلم في غزوة تبوك، إلا أنها تشير إلى الظرفية الزمنية التي وقعت فيها هذه الغزوة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكذبهم حين اعتذروا بسبب الحرارة المرتفعة الشديدة -كما هو حال العديد من الأعذار التي ردها عليهم- وإنما ذكرهم بأنه مهما بلغت شدة

[1] سورة الأعلى الآية 8.

[2] سورة التوبة من الآية 81.

الحرارة التي اعتذروا بها فإن نار جهنم التي تنتظرهم إذا تخلفوا أشد منها حرارة.

وقد كانت غزوة تبوك في "شهر رجب سنة تسع من الهجرة، وكان الفصل صيفا وقد بلغ الحر أقصاه"[1]، وهذا ما يؤكده حديث كعب بن مالك حيث قال: "لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حيث كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم"[2].

ثالثا: ما جاء في مكانها.

قال الحق سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾[3].

---

[1] فقه السيرة النبوية لسعيد رمضان البوطي، ص 295.

[2] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

[3] سورة التوبة من الآية 42.

"يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبي صلى عليه وسلم في غزوة تبوك وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لو كان عرضا قريبا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وسفرا قاصدا﴾ أي قريبا أيضا،﴿لا تبعوك﴾، أي لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾، أي المسافة إلى الشام"[1]، وهذا وجه الشاهد من الآية أي أنها أشارت إلى أن المكان الذي قصده الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعيدا. فقد نزل عليه الصلاة والسلام بتبوك وهو "موقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة المنورة ب 778 كيلا حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك"[2].

[1] تفسير ابن كثير (439/2).

[2] السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري (524/2).

رابعا: الحالة النفسية للناس عند إعلان النفير.

قال الحق سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمُ إِلَى الاَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيا مِنَ الاَخِرَةِ فَمَا مَتَعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا فِى الاَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل﴾[1].

فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية قال: "هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين، وبعد الطائف، أمرهم بالنفير في الصيف حين اخترقت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم الخروج"[2].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا﴾، أي اخرجوا للقتال ﴿ في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾، أي تثاقلتم وتباطأتم وملتم إلى الدنيا وشهواتها

---

[1] سورة التوبة الآية 38.

[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن (253/14).

وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديياركم، ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾، أي بدلها ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة﴾، أي في جنب الآخرة ﴿إلا قليل﴾"[1].

فالآية إذن تشير إلى حالة نفسية انتابت الناس عندما أمرهم الله ورسوله بالنفير لغزو الروم، وذلك لطيب المقام بالمدينة ولبعد السفر المقصود ولكثرة العدو وقوته، وما يلفت النظر في هذه الآية هو أن الخطاب فيها موجه إلى الذين آمنوا، مما يعني أن هذه الحالة أصابت كذلك بعض المؤمنين الصادقين، وهو أمر لا ينبغي أن يتسلل إلى نفوس المؤمنين وإن كان في المنافقين أمرا عاديا وعاما، مما أدى بهم في النهاية إلى التخلف عن رسول الله ﷺ، والله تعالى أعلم وأحكم.

[1] الأساس في التفسير (2295/4).

خامسا: الحالة المادية و الجو العام للغزوة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَد تَابَ اللَّهُ عَلَي النَّبِيِّ والمهجرين والانصَار الذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[1].

ووجه الاستدلال في الآية هو قوله تعالى ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾" أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر، وقلت الزاد والضيق الشديد، روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملؤوا ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها

[1] سورة التوبة من الآية 117.

جاوزت العسكر"[1]. ولقد حث النبي ﷺ قبل خروجه من المدينة على الإنفاق على جيش تبوك "ووعد المنفقين بعظم الأجر من الله، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش تبوك، فقد قال الرسول ﷺ: (من جهز جيش العسرة فله الجنة)، فجهزه عثمان"[2].

ورغم أن الصحابة أنفقوا كثيرا من أموالهم في هذه الغزوة، إلا أنه أصابهم فيها عسرة شديدة، على مستوى الزاد والمركب والماء، وذلك لكثرة الجيش الذي خرج مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة. قال ابن عرفة: "سمي جيش تبوك جيش العسرة لأن رسول الله ﷺ ندب الناس إلى الغزو في حمارة الغيط، فغلظ عليهم وعسر، وكان إبان ابتياع الثمرة، قال: وإنما ضرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله ﷺ لم يغز قبله في عدد مثله، لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر،

[1] صفوة التفاسير (496/1).

[2] السيرة النبوية الصحيحة للعمري (525/2).

ويوم أحد سبعمائة، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة، ويوم الفتح عشرة آلاف، ويوم حنين اثني عشر ألفا، وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة، وهي آخر مغازيه ﷺ"[1].

وللإشارة فإنه "لم يقع قتال مع الروم في هذه الغزوة، بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم والقبائل العربية المنتصرة، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية، وقد مكث الجيش عشرين ليلة في تبوك ثم عادوا إلى المدينة"[2].

الفرع الثاني: المتخلفون عن غزوة تبوك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الاَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُول اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾[3].

[1] الجامع لأحكام القرآن (177/8).

[2] السيرة النبوية الصحيحة (535/2).

[3] سورة التوبة الآية 120.

في هذه الآية يعاتب الحق سبحانه "المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة"[1]. يقول ابن العربي في تفسير الآية: "أي ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا -دليل على أن غيرهم لم يستنفروا، وإنما كان النفير منهم في قول بعضهم، ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل مسلم، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحق بذلك من غيرهم"[2].

ويمكن تقسيم المتخلفين عن غزوة تبوك إلى ثلاثة أصناف:

[1] تفسير ابن كثير، (486/2).

[2] أحكام القرآن لابن العربي (600/2).

الصنف الأول: المعذورون شرعا.

قال الله تبارك تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَي الضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَي الْمَرْضيٰ وَلاَ عَلَي الذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَج اِذَا نَصَحُواْ لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَي الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال ابن العربي في هذه الآية "إن الله لما استنفرهم لغزو الروم ودعاهم إلى الخروج لغزوة تبوك بادر المخلصون، وتوقف المنافقون والمتثاقلون وجعلوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف، ويعتذرون إليه بأعذار منها كفر (...) وقال في أهل العذر الصحيح: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ إلى ﴿من سبيل﴾ وهم الذين صدقوا في حالهم، وكشفوا

[1] سورة التوبة الآية 92.

تنضاف إلى الآية السابقة: الآية 90 و الآية 92 على قول من فسرهما في سياق أصحاب الأعذار المشروعة في غزوة تبوك.

عن عذرهم"[1]. وقد قال كعب بن مالك ﷺ في هذا المعنى: " فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء"[2]، وروى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ "أن رسول الله ﷺ رجع من تبوك فدنا من المدينة فقال: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر"[3].

الصنف الثاني: الثلاثة الذين خلفوا.

قال الله جل وعلى ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوَاْ أَن

[1] أحكام القرآن (561/2).

[2] صحيح البخاري، كتاي المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

[3] صحيح البخاري، كتاب المغازي، الباب الذي بعد باب مزول النبي ﷺ الحجر وهو بدون ترجمة.

لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

تشير هذه الآية إلى قصة ثلاثة من الصحابة الكرام الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم يكونوا من أصحاب الأعذار وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وقد روى البخاري هذه القصة على لسان كعب بن مالك نفسه – بعد أن أنزل الله توبتهم – قال: " كانَ مِن خَبَرِي: أنِّي لَمْ أكُنْ قَطُّ أقْوَى ولَا أيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْه في تِلكَ الغَزَاةِ، واللَّهِ ما اجْتَمعتْ عِندِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلكَ الغَزْوَةِ، ولَمْ يَكُنْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إلَّا وَرَّى بغَيْرِهَا، حتَّى كَانَتْ تِلكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا ومَفَازًا وعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أمْرَهُمْ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فأخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، والمُسْلِمُونَ مع رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَثِيرٌ، ولَا

[1] سورة التوبة الآية 118.

يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ -يُرِيدُ الدِّيوَانَ- قَالَ كَعْبٌ: فَما رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلَّا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لَمْ يَنْزِلْ فيه وَحْيُ اللَّهِ، وغَزَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تِلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلَالُ، وتَجَهَّزَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، فَطَفِقْتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّزَ معهُمْ، فأرْجِعُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فأقُولُ في نَفْسِي: أنَا قَادِرٌ عليه، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، ولَمْ أقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، فَقُلتُ: أتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيَومٍ أوْ يَومَيْنِ، ثُمَّ ألْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فَصَلُوا لِأتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ بي حتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، ولَيْتَنِي فَعَلْتُ! فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلكَ، فَكُنْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَطُفْتُ فيهم، أحْزَنَنِي أنِّي لا أرَى إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ، أوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وهو جَالِسٌ في القَوْمِ

بتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرُهُ في عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بِئْسَ ما قُلْتَ، واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّه تَوَجَّهَ قَافِلًا، حَضَرَنِي هَمِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وأَقُولُ: بمَاذَا أخْرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا؟! واسْتَعَنْتُ علَى ذلكَ بكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِن أهْلِي، فَلَمَّا قيلَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وعَرَفْتُ أنِّي لَنْ أخْرُجَ منه أبَدًا بشَيءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأَصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَادِمًا، وكانَ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بَدَأَ بالمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ ويَحْلِفُونَ له، وكَانُوا بِضْعَةً وثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: ما خَلَّفَكَ؟ ألَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ

ظَهْرَكَ؟ فَقُلتُ: بَلَى، إنِّي واللَّهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غيرِكَ مِن أهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أنْ سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولَكِنِّي واللَّهِ، لقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّهِ، لا واللَّهِ، ما كانَ لي مِن عُذْرٍ، واللَّهِ ما كُنْتُ قَطُّ أقْوَى، ولَا أيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقالوا لِي: واللَّهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذا، ولقَدْ عَجَزْتَ أنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعْتَذَرَ إلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قدْ كانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكَ، فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حتَّى أرَدْتُ أنْ أرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلتُ لهمْ: هلْ لَقِيَ هذا مَعِي أحَدٌ؟ قالوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ ما قُلْتَ، فقِيلَ لهما مِثْلُ ما قيلَ لَكَ، فَقُلتُ: مَن هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قدْ

شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِما أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي، ونَهَى رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسْلِمِينَ عن كَلَامِنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ مِن بَيْنِ مَن تَخَلَّفَ عنْه، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا حتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الأرْضُ، فَما هي الَّتي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَا علَى ذلكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وقَعَدَا في بُيُوتِهِما يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أنَا، فَكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أخْرُجُ فأشْهَدُ الصَّلَاةَ مع المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأسْوَاقِ ولَا يُكَلِّمُنِي أحَدٌ، وآتي رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فأقُولُ في نَفْسِي: هلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بردِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا منه، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أقْبَلْتُ علَى صَلَاتي أقْبَلَ إلَيَّ، وإذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي، حتَّى إذَا طَالَ عَلَيَّ ذلكَ مِن جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبِي قَتَادَةَ، وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلتُ: يا أبَا قَتَادَةَ، أنْشُدُكَ باللَّهِ، هلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ

حتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبيْنَا أنَا أمْشِي بسُوقِ المَدِينَةِ، إذَا نَبَطِيٌّ مِن أنْبَاطِ أهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بالمَدِينَةِ، يقولُ: مَن يَدُلُّ علَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له، حتَّى إذَا جَاءَنِي دَفَعَ إلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أمَّا بَعْدُ؛ فإنَّه قدْ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قدْ جَفَاكَ، ولَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ ولَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ، فَقُلتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهذا أيضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بهَا، حتَّى إذَا مَضَتْ أرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إذَا رَسولُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلتُ: أُطَلِّقُهَا أمْ مَاذَا أفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا ولَا تَقْرَبْهَا، وأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلكَ، فَقُلتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ في هذا الأمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ: إنَّ هِلَالَ بنَ أُمَيَّةَ شيخٌ ضَائِعٌ، ليسَ له خَادِمٌ، فَهلْ تَكْرَهُ أنْ أخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنْ لا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إنَّه واللَّهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شَيءٍ، واللَّهِ ما زَالَ يَبْكِي

مُنْذُ كانَ مِن أمْرِهِ ما كانَ إلى يَومِهِ هذا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امْرَأَتِكَ كما أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلتُ: واللَّهِ لا أسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدْرِينِي ما يقولُ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِن حِينَ نَهَى رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وأَنَا علَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوتِنَا، فَبيْنَا أنَا جَالِسٌ علَى الحَالِ الَّتي ذَكَرَ اللَّهُ؛ قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بنَ مَالِكٍ، أبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وركَضَ إلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وسَعَى سَاعٍ مِن أسْلَمَ، فأوْفَى علَى الجَبَلِ، وكانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي،

نَزَعْتُ لـه ثَـوْبَيَّ، فَكَسَـوْتُهُ إيَّاهُمَا ببُشْـرَاهُ، واللَّهِ ما أمْلِكُ غَيْرَهُما يَومَئذٍ، واسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسـولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ، فَيَتَلَقَّـانِي النَّـاسُ فَوْجًـا فَوْجًـا، يُهَنُّـونِي بالتَّوْبَـةِ، يَقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَـالَ كَعْبٌ: حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسـولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسـلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَـامَ إلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وهَنَّانِي، واللَّهِ ما قَامَ إلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، ولَا أنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَـالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَـلَّمْتُ علَى رَسـولِ اللَّهِ صـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ، قَـالَ رَسـولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ وهـو يَبْرُقُ وَجْهُـهُ مِنَ السُّـرُورِ: أبْشِـرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، قَـالَ: قُلتُ: أمِنْ عِنـدِكَ يا رَسـولَ اللَّهِ أمْ مِن عِنـدِ اللَّهِ؟ قَـالَ: لَا، بَـلْ مِن عِنـدِ اللَّهِ. وكانَ رَسـولُ اللَّهِ صـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ إذَا سُـرَّ اسْـتَنَارَ وَجْهُـهُ حتَّى كَأنَّـهُ قِطْعَـةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ قُلتُ: يا رَسـولَ اللَّهِ، إنَّ مِن تَـوْبَتِي أنْ أنْخَلِـعَ مِن مَـالِي صَـدَقَةً إلى اللَّهِ وإلَى رَسـولِ اللَّهِ، قَـالَ رَسـولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ: أمْسِـكْ عَلَيْـكَ بَعْـضَ مَالِـكَ؛ فَهـو خَيْرٌ لَـكَ. قُلـتُ: فـإنِّي أُمْسِـكُ سَـهْمِي الـذي بخَيْبَرَ،

فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ إنَّما نَجَّانِي بالصِّدْقِ، وإنَّ مِن تَوْبَتي أنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ ما أعْلَمُ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أبْلَاهُ اللَّهُ في صِدْقِ الحَديثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أحْسَنَ ممَّا أبْلَانِي؛ ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يَومِي هذا كَذِبًا، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيما بَقِيتُ، وأَنْزَلَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، فَوَاللَّهِ ما أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِن نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أعْظَمَ في نَفْسِي مِن صِدْقِي لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنْ لا أكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فإنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا -حِينَ أنْزَلَ الوَحْيَ- شَرَّ ما قَالَ لأحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. قَالَ كَعْبٌ: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ عن أمْرِ أُولَئِكَ

الَّذِينَ قَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، وأَرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَنَا حتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذلكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وليسَ الذي ذَكَرَ اللَّهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ؛ إنَّما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا، وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إلَيْهِ فَقَبِلَ منه[1].

الصنف الثالث: المنافقون.

قال الله عز وجل ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّومِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنَ اَخْبارِكُمْ﴾[2].

فقوله تعالى ": ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ "أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم

[1] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم الحديث: 4418.
[2] سورة التوبة الآية 94.

من سفركم وجهادكم ﴿قل لا تعتذروا لن نومن لكم﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق"[1]. فهذه الآية إذن تشير إلى أن المنافقين سيعتذرون إلى رسول ﷺ والمؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة وقد حدث ذلك كما جاء في حديث كعب بن مالك ﷺ قال: "وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين[2]، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله"[3].

ولقد ذكرت سورة التوبة مجموعة من الأعذار التي اعتذر بها المنافقون ليتخلفوا عن غزوة تبوك، كما أعقبت ذلك

---

[1] صفوة التفاسير (488/1).

[2] يقصد رسول الله ﷺ.

[3] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

بتكذيبهم وبيان الأسباب الحقيقية وراء تخلفهم عن رسول الله ﷺ.

أولا: بعض الأعذار التي اعتذر بها المنافقون.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[1].

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك: "يا محمد ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم قال الله تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله ابن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: "هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟" فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد

[1] سورة التوب الآية 49.

عرف قومي ما رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: "أذنت لك"، ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿ومنهم من يقول ايذن لي ولا تفتني﴾ الآية، أي : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: "من سيدكم بني سلمة ؟" قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخله، فقال رسول صلى عليه وسلم: "وأي داء أدوى من البخل؟ ولكن سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور"، وقوله تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أي لا محيد عنها ولا محيص ولا مهرب"[1].

[1] تفسير ابن كثير (441/2)

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

قوله تعالى ﴿وسيحلفون بالله﴾ "أي سيحلف المتخلفون عند رجوعك من الغزوة معتذرين ﴿لو استطعنا﴾ استطاعة عدة أو استطاعة أبدان ﴿لخرجنا معكم﴾. وفي الآية دليل من دلائل النبوة لأنه أخبر بما سيكون بعد القول فقالوا كما أخبر ﴿يهلكون أنفسهم﴾ أي بالحلف الكذب ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ أي في ما يقولون"[2].

تدل هذه الآية على أن من بين الأعذار التي اعتذر بها المنافقون عدم الاستطاعة وهو أمر كذبهم فيه الحق سبحانه بقوله: ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ فعدم الاستطاعة إذن عذر

[1] سورة التوبة الآية 42.

[2] الأساس في التفسير (2298/4).

كاذب خصوصا وأن منهم أغنياء تخلفوا، وهو ما تؤكده آية أخرى حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَسْتَذِنُونَكَ وَهُمُ أَغْنِيآءُ رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى الْحَرِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[2].

ذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية "أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك في حر شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر فقال الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد نار جهنم التي أعدها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله، أشد حرا من هذا الحر الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه"[3]. وأخرج كذلك "عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك،

[1] سورة التوبة الآية 94.

[2] سورة التوبة من الآية 82.

[3] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (399/4).

فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في حر الله، فأنزل الله: ﴿قل نار جهنم أشد حرا﴾ الآية.

فهذه بعض الأعذار التي تيسر لي ملاحظتها في هذا الباب، وإن لم تكن كل الأعذار، لأن الباطل متعدد بعدد أهله وطرقه، فإذا كانت سورة التوبة فضحت أعذار المنافقين وكذبهم فإنها لم تترك الأمر هكذا هملا وإنما بينت الأسباب الحقيقية وراء تخلفهم، حتى يكون المسلمون على بينة من أمر هذا العدو المدنس داخل صفوفهم.

فما هي إذن هذه الأسباب ؟

ثانيا: الأسباب الحقيقية لتخلفهم.

قال الحق سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[1].

[1] سورة التوبة الآية 42.

فقولــــه تعـــالى: ﴿ لو كان عر ضا قريبا و سفرا قا صدا لا تبعوك﴾، "نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك واستأذنوا في القعود عنها بأعذار كاذبة فأذن لهم النبي صلى عليه وسلم، أي لو كان ما دعوا إليه غنما سهل المأخذ، وسفرا متوسطا بين القرب والبعد لا مشقة فيه، لخرجوا معك طمعا في المنافع التي تصل إليهم"[1].﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ "أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق"[2].

فالآية إذن تشير إلى أن الذي جعل المنافقين يتخلفون عن رسول الله ﷺ ليست تلك الأعذار التي أفصحوا عنها، وإنما عامل آخر داخلي لم يظهروه وقد عبرت عنه الآية ببعد الشقة، وهذا يعني أنه "لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ولكنها

[1] صفوة البيان لمعاني القرآن (321/1).

[2] صفوة التفاسير (469/1).

الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلة المنخوبة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة"[1].

ومن بين الأسباب كذلك التي جعلت المنافقين يتخلفون أنهم كرهوا الجهاد في سبيل الله، ورضوا بالتخلف عن رسول الله ﷺ، كما قال سبحانه ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

ثالثا: الدرس المستخلص من عدم خروجهم.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ

[1] في ظلال القرآن (1661/10).

[2] سورة التوبة من الآية 82.

خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

قال ابن إسحاق: "كان الذين استأذنوه من ذوي الشرف فيما بلغني، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجد بن قيس، وكانوا أشرافا في قومهم فثبطهم الله لعلمه أنهم إن يخرجوا معه يفسدا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم"[2].

ووجه الشاهد من الآيات هو قوله تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾، أي أن عدم خروجهم كان تدبيرا ربانيا محكما لمصلحة المسلمين لأن "القلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج

[1] سورة التوبة الآية 46-47.

[2] السيرة النبوية لابن هشام (152/4)

أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم ذلك الحين، ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين"[1].

المطلب الرابع: قصة مسجد الضرار.

قال الله عز وجل: ﴿الذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُومِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَه مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَ اَرَدْنَآ إِلاَّ الْحُسْنيٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَي التَّقْويٰ مِنَ اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَّتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنُ اَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَيٰ تَقْويٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ اَم مَّنُ اَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ, عَلَيٰ شَفَا

[1] في ظلال القرآن (1663/10)

جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بِهِ" فِى نار جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ لاَ يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمُ إِلآَّ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيم حَكِيم﴾[1].

"سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله صلى عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر

[1] سورة التوبة الآية 108 إلى 111.

حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك،

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله صلى عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: {إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله} فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم؛ مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة"[1].

[1] تفسير ابن كثير (472/2).

الفصل الثاني:

بيئة الرسول صلى عليه وسلم وأصناف من تعامل معهم من الناس من خلال سورة التوبة

المبحث الأول: تصنيف الناس من حيث موفقهم من دعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم

المبحث الأول: تصنيف الناس من حيث موقفهم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم

فإذا كان الفصل الأول تطرق إلى بعض الأحداث الكبرى في السيرة النبوية، فإن موضوع هذا الفصل سيتمحور حول جانب آخر من الجوانب التي فصلت فيها سورة التوبة، وهو أصناف الفاعلين في الأحداث المذكورة وفي غيرها من أحداث السيرة البنيوية إما إيجابا أو سلبا، مع ذكر بعض الأحداث الجزئية التي تتعلق بكل صنف من هذه الأصناف، حسب ما ذكرته السورة نفسها.

وكما أسلفنا فإن سورة التوبة من أواخر ما نزل من القران الكريم، وارتبط نزولها بغزوة تبوك التي كانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، والتي وجه فيها وجهة المسلمين إلى أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت وهي الروم، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تحقق وعد الله بالنصر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث انتهى من فتح جزيرة العرب واتجه خارجها لنشر الإسلام في الأمم الأخرى.

فلما تحقق النصر لدعوة الإسلام كان لزاما أن يعرف الصادق من الكاذب، ومن نصر الإسلام ومن عاداه، كما يقول الحق سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]، وفي هذا السياق نزلت سورة التوبة بخطابها الرباني بعد أن أصبحت الغلبة لدعوة الإسلام لتميز بين من نصروا الله ومن حاربوه، وتبين مصير كل منهما في الدنيا والآخرة وجزاء كل فريق على ما سعى.

ولقد ذكرت السورة أربعة أصناف ممن تعامل معهم الرسول ﷺ، والذين اختلفت مواقفهم من دعوة الإسلام حيث آمن بها وجاهد من أجلها المسلمون، وحاربها المشركون وأهل الكتاب، في حين تربص بها المنافقون الدوائر حتى ظهر أمر الله كارهون، وفيما يلي عرض لهذه الأصناف حسب ما جاء في هذه السورة، والله المستعان.

[1] سورة القلم الآيات: 35-36.

المطلب الأول: المهاجرون والأنصار والمؤمنون عامة.

قال الله سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

الفرع الأول: موقفهم من الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[2]. ووجه الشاهد من هذه الآية، هو أن موقف هؤلاء المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان، أنهم آمنوا بدعوة رسول الله صلى عليه وسلم، وهاجروا من أجلها وجاهدوا بأموالهم

[1] سورة التوبة الآية 100.

[2] سورة التوبة الآية 20، وفي هذا المعنى كذلك الآية 71 من نفس السورة.

وأنفسهم في سبيل الله، أي أنهم عصب هذه الدعوة وجنودها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء.

فقد آمنوا بهذه الدعوة في مكة، حيث كان الإيمان جرما تسفك دماء أصحابه، وتزهق أرواحهم تحت سياط التعذيب، فصبروا على ذلك وتحملوا حتى أمروا بالهجرة فهاجروا في سبيلها تاركين ديارهم وأوطانهم، ملتحقين بالمدينة حيث الأنصار الذين بايعوا بدورهم رسول الله صلى عليه وسلم على نصرة الإسلام، والتضحية من أجله بالأنفس والأموال.

ومن هؤلاء المهاجرين والأنصار تكونت طليعة الإسلام الأولى، حيث أذن لهم بعد ذلك بالجهاد فجاهدوا من أجل إعلاء كلمة الله على الأرض، فوقفوا بجانب رسول الله صلى عليه وسلم من غزوة إلى غزوة، ومن سرية إلى سرية، حتى تحقق وعد الله بالنصر، فكانوا أهلا لأن يرضى الله عنهم ويرضيهم ويجازيهم

بالحسنى، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1].

الفرع الثاني: موقف الإسلام منهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

قوله تعالى ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ "أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ أي سلكوا طريقهم

[1] سورة الرحمان الآية 59.

[2] سورة التوبة الآية 100.

واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وعدهم بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم"[1]، قال الطبري: "رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام"[2]، ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ "أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار﴿خالدين فيها أبدا﴾ أي مقيمين فيها

[1] صفوة التفاسير (489/1).

[2] جامع البيان عن تأويل أي القرآن (439/14).

من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز لا فوز وراءه"[1].

فبالإضافة إلى ما أعده الله لهم من نعيم الآخرة، فقد أنزل الله توبته عليهم في القرآن الكريم لتكون بشرى لهم وتطمئن بها قلوبهم، حيث قال سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

[1] صفوة التفاسير (489/1).

[2] سورة التوبة الآية 118.

المطلب الثاني: المشركون.

الفرع الأول: موقفهم من الإسلام.

قال الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[1]

ووجه الشاهد من الآية، هو قوله عز وجل ﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ أي أن موقفهم من الإسلام هو الكفر، بل لم يقتصروا على الكفر فحسب، وإنما تعدوه إلى العداوة والمحاربة كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه في نفس السورة﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ

[1] سورة التوبة الآية 17.

مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وقوله عز وجل ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[2]، والأدلة على محاربتهم للإسلام أكبر من أن تحصى في القرآن، غير أني اكتفيت بهذه السورة لأنها موضوع البحث.

والمشركون كما هو معلوم هم عبدة الأصنام الذين كانت نظمهم تسيطر على المجتمع العربي قبيل ظهور الإسلام، ولقد انبثقت دعوة الإسلام من مكة التي كانت عاصمة للمشركين في ذلك الوقت، حيث كانت توجد بها أصنامهم التي يقدسونها ويقدمون لها القرابين من دون الله في بيت الحرام.

ولقد حارب المشركون هذه الدعوة منذ الوهلة الأولى، لأنهم أدركوا معنى كلمة "لا إله إلا الله" حيث رأوا فيها فناء

[1] سورة التوبة الآية 13.

[2] سورة التوبة الآية 8.

معتقداتهم الضالة فحاربوها بشتى الوسائل، وعذبوا أهلها أشد العذاب، وسخروا من رسولهم عليه الصلاة والسلام واتهموه تارة بأنه ساحر، وتارة أخرى بأنه مسحور وقالوا عنه شاعر ومجنون إلى غير ذلك مما رموه به وهو منه بريء، إلا أن هذا لم يغنهم شيئا في معركتهم مع الإسلام، بل ازداد المسلمون كثرة، وازداد الإسلام انتشارا، وبدأ الناس يتحولون من الشرك إلى الإسلام حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة فهاجروا إلى المدينة المنورة، حيث كون رسول الله ﷺ نواة الدولة الإسلامية، ثم بدأت المعارك بين المعسكرين؛ معسكر التوحيد بالمدينة، ومعسكر الشرك بمكة، ففي السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر، حيث أعز الله فيها الإسلام وانتقم من صناديد الشرك وأئمة الكفر، ثم كانت أُحد في السنة التي تليها، حيث ابتلي فيها المسلمون ابتلاء واتخذ الله منهم شهداء، وفي السنة الخامسة للهجرة حاول المشركون أن يقضوا على الدولة الناشئة بالمدينة فتحالفوا مع اليهود وجمعوا جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل، وحفر المسلمون خندقا حول المدينة فلم يدخلوها، وفي هذا

يقــول الحــق ســبحانه ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[1].

ثـم انقلبـت مـوازين القـوة بعـد ذلـك لصـالح المسـلمين، ففـتح رسـول الله ﷺ مكـة المكرمـة، وطهرهـا مـن الأصـنام، فـدخل النـاس في ديـن الله أفـواجـا، وأصـبح الـذين يعبـدون هـذه الأصـنام بـالأمس يحـطموهـا اليـوم ويتـخلصـون منهـا، وأمـا الـذين اسـتمروا على الشـرك فهـم مـن يتحمـلـون تبعـة مـا قـام بـه المشـركون منـذ البدايـة، ولـذلك كـان لابـد أن ينـالـوا جـزاء مـا قـدمت أيـديهم في الدينا قبل الآخرة.

---

[1] سورة الأحزاب الآية 25.

الفرع الثاني: موقف الإسلام منهم.

أولا: جزاؤهم في الدنيا.

يقول الحق سبحانه وتعالى في بداية سورة التوبة ﴿ بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَإِنۡ
أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ
عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ۖ
فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ كَيۡفَ وَإِن
يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ
قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن
سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم
مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ

لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

من المعلوم أن المشركين الذين واجههم الإسلام في أول دعوته بالجزيرة العربية وقاوموه وعادوه، انقسموا لاحقا إلى فريقين؛ فريق أسلم فدخل في جماعة المسلمين، تجري عليه أحكامهم وله ما لهم وعليه ما عليهم، وهو الغالب؛ وفريق ثبت على شركه وأصر على كفره، وهو المعني بهذه الآيات.

ذكر ابن كثير في تفسيره لسورة التوبة أن "أول هذه السورة الكريمة نزل على الرسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم

[1] سورة التوبة الآيات من 1 -15.

على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق ﷺ أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿براءة من الله ورسوله﴾"[1].

ولعل ابن كثير رحمه الله اعتمد في هذا القول على ما رواه البخاري عن حميد بن عبد الرحمان أن أبا هريرة ﷺ قال: "بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون **بمنى**: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان"[2].

وتجنبا للإطالة فسأقتصر على ذكر وجه الشاهد من هذه الآيات، وهو جزاء هؤلاء المشركين في الدنيا والمتمثل في "إعلان براءة الله ورسوله من كل من له عهد مطلق من المشركين (والمراد بهم مشركو جزيرة العرب)، وكل من له عهد دون أربعة أشهر، فهؤلاء وهؤلاء يعطون فرصة أربعة أشهر من

[1] تفسير ابن كثير ج2 ص404 .

[2] صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله { فسيحوا في الأرض أربعة اشهر}.

تاريخ الإعلان، ثم لا عهد بعد ذلك، وأما من له عهد مؤقت فعهده إلى تأقيته مالم يغدر، أو يحس منه الغدر، ومع هذا الإعلان تهديد لهم بانتقام الله منهم، وتهديد بأن الله سيذلهم"[1]، ثم أمر الله تعالى المسلمين بقتل المشركين بعد انتهاء هذه الأشهر وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ2 فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[1] الأساس في التفسير ج 4 ص 2219.

[2] رجح ابن في احكام القرآن ليست الأشهر الحرم المعروفة وإنما أربعة اشهر من يوم النحر أي النحر أي المهلة التي أعطيها المشركون.

ثانيا: جزاؤهم في الآخرة.

يقــول الحــق ســبحانه وتعــالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾[1].

المطلب الثالث: أهل الكتاب.

الفرع الأول: موقفهم من الإسلام.

يقــول الله عــز وجــل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ

[1] سورة التوبة الآية 17.

ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1].

فكما هو معلوم أن أهل الكتاب ينقسمون إلى طائفتين هما اليهود والنصارى، وبناء على ما جاء في هذه الآيات فإن موقفهم من الإسلام ينقسم إلى شقين؛ يتعلق الشق الأول بموقفهم العقائدي أي أنه إذا كان القرآن الكريم يقول في سورة الإخلاص ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾[2]، فإن هؤلاء اليهود والنصارى لهم موقف آخر، وآخر وهو أنهم متفقون على نسبة الولد إلى الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا- بغض النظر عن الشخص المنسوب، وهذا عين الافتراء والبهتان، ينزه الله عنه تنزيها يليق بجلال وجهه وكمال أوصافه.

بالإضافة إلى ما سبق فقد اعتبرهم الله عز وجل مشركين حيث قال سبحانه ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا

[1] سورة التوبة الآيات 30-31-32.

[2] سورة الإخلاص.

مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية كما جاء في حديث رواه "الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم ﷺ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسا في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، قال: فقلت: أنهم لم يعبدوهم فقال: "بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم"، وقال رسول الله ﷺ "يا عدي ما تقول؟ أيضرك

[1] سورة التوبة الآية 31.

أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ما يضرك، أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله؟" ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد الحق، قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: "إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون" وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، أنهم اتعبوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا الكتاب وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلهاً وَاحِداً﴾ الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿ لآَّ إله إِلاَّ هُوَ سُبْحَـٰنَهُ,, عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه[1].

[1] تفسير ابن كثير (424/2).

أما الشق الثاني من موقفهم من الإسلام فهو يتعلق بمحاربته وصد الناس عنه، كما يشير إلى ذلك قوله عز وجل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] وقوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2]، فأما بالنسبة لليهود فقد كانت مواقفهم أكثر عدائية وأكثر غدرا، حيث كانت بعض قبائلهم تقطن حول المدينة، ووجدهم فيها النبي ﷺ لما هاجر إليها، ومن هذه القبائل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وخيبر، فأما بنو قينقاع فقد أجلاهم النبي ﷺ من المدينة بسبب تجرئهم على أعراض المسلمات، وأما بنو النضير فقد حاولوا اغتيال النبي ﷺ فحاصرهم المسلمون حتى استسلموا وأخرجوهم من المدينة، وأما بنو قريظة فقد نقضوا عهودهم مع النبي صلى الله

[1] سورة التوبة الآية 32.

[2] سورة التوبة الآية 34 والأحبار هم علماء اليهود والرهبان هم العباد من النصارى.

عليه وسلم في أحرج اللحظات، حيث كان المشركون يحاصرون المدينة في غزوة الأحزاب، فتعاونوا معهم للقضاء على المسلمين، فاتجه المسلمون إليهم في غزوة بني قريظة فهزمهم الله، وقتل منهم المسلمون من قتلوا وأسروا منهم الكثير، أما خيبر فقد كانت مهد المؤامرات اليهودية ودسائسهم الماكرة، حيث حرضوا الأحزاب على النبي ﷺ واستعانوا بغيرهم للقضاء عليه، عندها توجه إليهم المسلمون في غزوة عرفت بفتح خيبر، فهزموهم بإذن الله، وقضي بذلك على القوة اليهودية في الجزيرة العربية، وإن بقي فيها أفراد يشتغلون في حقول خيبر ومزارعها.

أما النصارى فقد كان لهم في البداية موقف حسن تجاه المسلمين خصوصا النجاشي ملك الحبشة – الذي كان نصرانيا في ذلك الوقت – حيث قبل المهاجرين المسلمين لما أرسلهم النبي ﷺ ولم يسلمهم لقريش، إلا أن عدواتهم بدأت حين قتلوا الحارث بن عمير الأزدي الذي بعثه النبي ﷺ إلى عظيم بصرى،

فكان ذلك سببا لمعركة مؤتة، ثم جمعوا الجيوش بعد ذلك في السنة التاسعة فكانت غزوة تبوك[1].

الفرع الثاني: موقف الإسلام منهم.

قال الحق سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية "لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو

[1] اعتمدت في استخلاص هذه الاحداث على ما جاء في الرحيق المختوم.

[2] سورة التوبة الآية 29.

أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم"[1]. فموقف الإسلام منهم هو أنه أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بمقاتلة جميع الكفار لاتفاقهم على هذا

[1] تفسير ابن كثير (432/2).

الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا ذكر محمد ﷺ وملته وأمته، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة، فنبه على محلهم ثم جعل للقتال غاية، وهي إعطاء الجزية بدلا عن القتل، وهو الصحيح. قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها فقال: ﴿قاتلوا﴾ وذلك أمر بالعقوبة ثم قال: ﴿الذين لا يؤمنون﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة، وقوله: ﴿ولا باليوم الآخر﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿ولا يدينون دين الحق﴾، إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام، ثم قال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ تأكيد للحجة، لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم

في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة وعين البدل الذي ترتفع به[1]".

قال الإمام مالك رحمه الله في مسألة أخذ الجزية "مضت السنة أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين قد بلغوا الحل، وليس على أهل الذمة ولا على المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زروعهم ولا مواشيهم صدقة؛ لأن الصدقة إنما وضعت على المسلمين تطهيرا لهم وردا على فقرائهم، ووضعت الجزية على أهل الكتاب صغارا لهم[2]" .

[1] الجامع ابن كثير ج2 ص 423.

[2] الموطأ، كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس.

المطلب الرابع: المنافقون.

قال الحق سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

الفرع الأول: موقفهم من الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[2].

يقول تعالى محرضا لنبيه عليه الصلاة والسلام على المنافقين:﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي صلى الله

[1] سورة التوبة الآية 67.

[2] سورة التوبة الآية 48.

عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه. فدخلوا في الإسلام ظاهرا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ "[1].

فإذا كان المشركون وأهل الكتاب أعلنوا عدواتهم للإسلام وحاربوه من خارجه، فإن هؤلاء المنافقين يعلنون الإسلام ويخالطون المسلمين في مساجدهم وفي أسواقهم وفي كل مكان، أي أنهم يحاربون الإسلام من الداخل ويتربصون بالمسلمين الدوائر، فإن كانت الغلبة لهم أظهروا الولاء لهم وإن أصابهم شيء من الضعف خذلوهم وتجرؤوا عليهم، ولقد كان تاريخ المنافقين مع النبي ﷺ مليئا بالخذلان والمؤامرات، ولعل

[1] تفسير بن كثير ج2 ص 440.

أبرزها ما رموا به أم المؤمنين عائشة ﵂ من البهتان والإفك المبين، وقد أنزل الله براءتها في بداية سورة النور.

ومن مؤامراتهم التي ذكرها الله عز وجل في سورة التوبة ما عرف بقصة مسجد الضرار والتي تدل على مواقفهم العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، وقد سبق ذكر هذه القصة في الفصل الأول من هذا البحث.

الفرع الثاني: موقف الإسلام منهم.

أولا: جزاؤهم في الدنيا.

يقول الحق سبحانه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[1].

[1] سورة التوبة الآية 64.

فإذا كان انتصار المسلمين على المشركين وأهل الكتاب بناء على معارك حربية قامت بينهم حتى أعز الله الإسلام والمسلمين، فإن هؤلاء المنافقين كانت المعركة معهم قرآنية بحتة، وإلى هذا تشير الآية، فقد توعدهم الله فيها بأن يخرج ما في سرائرهم ويفضح نواياهم، وقد دل ذلك في كثير من السور القرآنية وفي سورة التوبة بالخصوص.

ويؤيد هذا ما رواه مسلم عن سعيد بن جبير قال: " قُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قالَ: آلتَّوْبَة؟ قالَ: بَلْ هي الفَاضِحَةُ ما زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حتَّى ظَنُّوا أَنْ لا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ، إلَّا ذُكِرَ فِيهَا[1] "، ونظير هذه الآية ما جاء في فضح المتخلفين عن غزوة تبوك حيث قال سبحانه﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

[1] صحيح مسلم كتاب التفسير باب في سورة براءة والانفال والحشر.

تَعۡمَلُونَ ﴾[1]، وقد مر بنا ذلك في الفصل الأول عند الحديث عن غزوة تبوك فلا داعي لتكراره هنا.

ثانيا: جزاؤهم في الآخرة.

قال الله جل شأنه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسۡبُهُمۡ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾[2].

فهذه الآية تدل دلالة واضحة وصريحة على أن جزاء المنافقين في الآخرة هو الخلود في نار جهنم، وقد توعدهم الله في آية أخرى بعدم المغفرة حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ

[1] سورة التوبة 94.

[2] سورة التوبة الآية 68.

أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.[1]

□

[1] سورة التوبة الآية 81.

المبحث الثاني: تصنيف الناس من حيث بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم

المطلب الأول: أهل المدينة والأعراب (المجال الحضري والمجال القروي).

قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1]. وقال الله كذلك: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

إذا كنا قد تحدثنا في المبحث السابق عن تصنيف السورة لمن تعامل معهم النبي ﷺ بناء على مواقفهم من دعوة الإسلام، فإننا في هذا المبحث سنعرض - لاعتبار آخر بُني عليه

[1] سورة التوبة من الآية 120

[2] سورة التوبة من الآية 102

التصنيف، وهو البيئة التي ينتمي إليها هؤلاء الناس، وتلك البيئة هي ذاتها التي عاش فيها رسول الله ﷺ.

وقد بيّنت الآيتان صنفين جامعين من الناس؛ أهل المدينة من جهة، والبدو الذين يحيطون بها من جهة أخرى. وهو تقسيم يوافق ما يعرف في علم الاجتماع بالمجال الحضري والمجال القروي، بوصفهما مكونين أساسيين في بنية أي مجتمع بشري.

فوجه الشاهد إذن من هاتين الآيتين هو أنهما أشارتا إلى صنفين من الناس ممن تعامل معهما النبي ﷺ وهما أهل المدينة وسكان البوادي من حولها، وهذا التصنيف لا ينفصل عن الذي سبقه لأنه بني على بيئة الناس لا على مواقفهم، حيث نجد من أهل المدينة صحابة أجلاء كما نجد منهم أهل الكتاب، بالإضافة إلى المنافقين وهذا يصدق كذلك على الأعراب، ويتضح هذا المعنى جليا في قوله عز وجل﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ

وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

المطلب الثاني: ما ينبني على هذا التقسيم.

ومما يستخلص من هذا التقسيم، سعة خلق النبي صلى الله عليه وسلم، فقد تعامل مع أهل المدينة بما فيهم من تجربة ودهاء، كما تعامل مع الأعراب بما فيهم من جهل وجفاء، ورغم ذلك فلم يخدعه دهاة المدينة من المنافقين واليهود، كما لم يخرجه جهل الأعراب عن حلمه وتواضعه.

فأما أهل المدينة فقد كان منهم المؤمنون الذين صقل القرآن مواهبهم، ووجه سلوكهم فكانوا يحترمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجلونه، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بخلقي الرأفة والرحمة، كما قال الله عز وجل ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ

[1] سورة التوبة الآيات 98.99.

رَّحِيمٌ﴾[1] وكان من أهل المدينة كذلك المنافقون واليهود فعاملهم النبي ﷺ بمنهجين أساسيين: فإذا كان الأمر الصادر منهم غاية في الخطورة على المسلمين أو انتهكت به حرمات الله فكان يعاملهم بالحزم والشدة والغلظة كما قال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2]، ويتجلى هذا في حادثة مسجد الضرار حيث هدمه رسول الله ﷺ بعد أن اطلعه الله على أمره، وأما إذا كان ما صدر منهم لا يشكل خطورة كبيرة فقد كان يعفو عنهم ويصبر عليهم.

وأما الأعراب فكانوا أبعد عن سماع القرآن وحضور مجالس العلم والاحتكاك بالناس، ولذلك كان الجفاء هو السمة الغالبة عليهم حتى قال فيهم الله عز وجل:﴿الْأَعْرَابُ

[1] سورة التوبة من الآية 129.

[2] سورة التوبة 73.

أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، فكان الرسول ﷺ يواجه جهلهم وغلظ طباعهم بالحلم والعفو بل يتعدى ذلك إلى إكرامهم والإحسان إليهم.

وقد رويت في ذلك روايات كثيرة أكتفي بذكر ثلاث روايات منها؛ الأولى رواها البخاري عن جابر ابن عبد الله ﷺ: "أن أعرابيا بايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى الأعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أقلني بيعتي، فأبى رسول الله ﷺ، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى، فخرج الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ : (إنما المدينة كالكير، تنفي خبثها وتنصع طيبها)[2]، أما الثانية فقد جاءت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: " كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة

[1] سورة التوبة الآية 97.

[2] صحيح البخاري كتاب الاحكام، باب من بايع ثم استقال البيعة.

شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء"[1]، وأما الرواية الثالثة فهي عن أبي هريرة ﷺ: "أن أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء، أو سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"[2].

ومن هنا تتجلى لنا عظمة خلق النبي ﷺ، وقد دخل الكثير من الناس في الإسلام بسبب خلقه الرفيع ومعاملته الحسنة حتى قال أحدهم: "إن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر"، وقال آخر: "اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا". فقد فتح عليه الصلاة والسلام قلوب الناس قبل أن يفتح

[1] صحيح البخاري كتاب الادب، باب التبسم والضحك.

[2] صحيح البخاري كتاب الآداب، باب قول النبي ﷺ {يسروا ولا تعسروا}.

بلدانهم وأبهر خلقه العقول عبر العصور ولا زال والحمد لله، وقد صدق فيه قول الله عز وجل:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

[1] سورة القلم الآية4

خاتمة

من خلال ما سبق؛ يتضح لنا جليا أن سورة التوبة بظرفيتها الزمنية المتأخرة قد وضحت الصورة التي آلت إليها دعوة الإسلام قبيل وفاة الرسول ﷺ من النصر والتمكين بعد أن صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

فإذا كان من عادة المنتصر أن يفرض معاهدات وشروط على المنهزم الذي كان من شأنه ما كان من العداوة والمحاربة، فإن المسلمين لا يخرجون عن هذه القاعدة، إلا أن ما يتميز به الإسلام هو أنه فرض هذه المعاهدات والشروط على المبادئ التي حاربته وليس على الأشخاص الذين حاربوه، فهو يحارب شرك المشركين، ونفاق المنافقين، وكبر وغرور أهل الكتاب، فإذا تخلى هؤلاء عن هذه الصفات وأسلموا، فإن الإسلام يعز أهله ويجب ما قبله.

ولقد تولى الله عز وجل تدبير هذا الأمر كما يتبين ذلك من خلال هذه السورة، فأما المؤمنون الذين صبروا وصابروا

حتى أضحت كلمة الله هي العليا، فقد نصرهم الله وبشرهم برضوانه وجناته، وأنزل توبته عليهم جزاء بما كانوا يعملون، وأما المشركون الذين تسمكوا بشركهم فقد رد الله عليهم عهودهم، وأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام وأمهلهم أربعة أشهر حتى يكونوا على بينة من أمرهم، وأمر المسلمين بقتلهم بعد فوات هذه الأشهر، وأما أهل الكتاب فقد أمر الله سبحانه بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأما المنافقون فقد أظهر الله نواياهم وأعلن أسرارهم.

فإذا كان هذا شأن سورة التوبة فإن هناك سورا أخرى لا تقل عنها أهمية في هذا المجال وأخص منها على سبيل المثال لا الحصر سورة آل عمران والأنفال والأحزاب والفتح والحشر، فهذه السور وغيرها هي التي تبين لنا المراحل التي قطعتها الدعوة الإسلامية لتصل إلى النصر الذي يتجلى في ثنايا سورة التوبة، ولهذا فهي محتاجة إلى دراسة خاصة حتى تتضح لنا ملامح السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم فنتذكرها كلما قرأناه فتخلد في نفوسنا كما خلدت في سوره وآياته.

ولا أدعي أنني وفيت سورة التوبة ما تستحقه من العناية والدراسة وما ذلك إلا لسببين؛ أحدهما قلة زادي وحداثة تجربتي في مجال طلب العلم، والثاني أن القرآن كلام الله المعجز لا يحيط بعلمه إلا الله، وستبقى الأجيال تلو الأجيال تنهل من جواهره دون أن تبلغ كمال معانيه، وصدق الله إذا يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيم﴾[1]

هذا والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

وخير ما نختم به هذا البحث ما ختم الله به هذه السورة وهو أمر يعبر عن النتيجة التي ينتهي إليها كل من درس سيرة الرسول ﷺ أو جانبا من جوانبها حيث قال الحق سبحانه : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

[1] سورة يوسف الآية 76.

[2] سورة التوبة الآية 129-130.

قائمة المصادروالمراجع

- **القران الكريم.**

<u>كتب التفسير.</u>

❖ جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر بن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، الجزء الرابع عشر، مكتبة ابن تيمية.

❖ أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الجزء الثاني دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، سنة 2003م/1424هـ.

❖ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، الجزء الثامن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، سنة 1993م /1413هـ.

❖ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، الجزء الثاني، دار الرشاد الحديثة.

❖ الأساس في التفسير لسعيد حوى، الجزء الرابع، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 1985 م / 1405 هـ

❖ في ظلال القرآن لسيد قطب، الجزء العاشر والحادي عشر، دار الشروق، الطبعة السابعة عشرة، سنة 1992م /1412هـ

❖ صفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين محمد مخلوف، الجزء الأول، دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الأول،ى سنة 1956م/1375 هـ.

❖ صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، الجزء الأول، دار الأفق لطباعة والنشر، سنة 2004 م/1424هـ.

كتب السيرة:

❖ السيرة النبوية لابن هشام، دار الفكر، الطبعة الأولى، سنة 2005م.

❖ سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، لمحمد عزة دروزة المكتبة العصرية.

❖ السير النبوية في القرآن الكريم لعبد الصبور مرزوق مكتبة الأسرة.

❖ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية لمهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة 1992م/ 1412هـ.

❖ السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية لأكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الطبعة السابعة، سنة 2007م/1428هـ.

❖ مصادر السيرة النبوية وتقويمها لفاروق حمادة، دار الثقافة، الطبعة الثانية.

❖ الرحيق المحترم لصفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، سنة الطبعة 2011م/1432هـ

❖ فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، طبعة سنة 2003م/1423هـ

كتب الحديث:

❖ صحيح البخاري الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، طبعة سنة 1981م/1401هـ.

❖ صحيح مسلم الإمام ابن الحجاج النيسابوري، دار الجيل بيروت.

❖ فتح الباري شرح صحيح البخاري الإمام ابن حجر العسقلاني، الجزء الثامن، دار الفكر.

❖ الموطأ للإمام مالك بن أنس، دار الحديث، سنة الطبع 2004م/1425هـ.

كتب أخرى:

- لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي، ملحق بآخر كتاب تفسير الجلالين، دار الكتب العلمية، طبعة سنة 2005م/1426هـ.

- علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، دار الحديث، طبعة سنة 2003م/ 1423هـ.

- أبجديات البحث في العلوم الشرعية لفريد الأنصاري، مطبعة النجاح، الطبعة الأولى، سنة 1997م/1417هـ.

فهرس الموضوعات

تقديم الكتاب..... 1

مقدمة..... 4

الفصل الأول: سورة التوبة وأهم ما ورد فيها من أحداث السيرة..... 9

المبحث الأول: علاقة سورة التوبة بالسيرة النبوية.....10

المبحث الثاني: أهم الأحداث الواردة في سورة التوبة.....19

المطلب الأول: حادثة غار ثور.....19

المطلب الثاني: غزوة حنين.....22

المطلب الثالث: غزوة تبوك أو العسرة.....27

المطلب الرابع: قصة مسجد الضرار.....61

الفصل الثاني: بيئة الرسول صلى عليه وسلم وأصناف من تعامل معهم من الناس من خلال سورة التوبة.....65

المبحث الأول: تصنيف الناس من حيث موقفهم من دعوة الرسول ﷺ.....66

المطلب الأول: المهاجرون والأنصار والمؤمنون عامة.....68

المطلب الثاني: المشركون.....73

المطلب الثالث: أهل الكتاب.....82

المطلب الرابع: المنافقون.....92

المبحث الثاني: تصنيف الناس من حيث بيئة الرسول ﷺ.....98

المطلب الأول: أهل المدينة والأعراب (المجال الحضري والمجال القروي).....98

المطلب الثاني: ما ينبني على هذا التقسيم..... 100

خاتمة..... 105

قائمة المصادر والمراجع..... 108

فهرس الموضوعات..... 113

عن هذا الكتاب:

ينطلق هذا الكتاب من فكرة مفادها؛ ضرورة استخراج أحداث السيرة النبوية وكل ماله علاقة بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ومجتمعه الذي عاش فيه من القرآن الكريم، وذلك بتوظيف القواعد الأصولية خصوصا قواعد دلالة النص القرآني على المعنى.

كما يهدف هذا الكتاب إلى استقصاء الآيات القرآنية لاستخراج السيرة النبوية منها على المنهج المذكور. وقد اتخذ الكتاب سورة التوبة أرضية له، على أن تكون هذه البداية ليوظف نفس المنهج على بقية السور لاستكمال صورة حياة النبي صلى الله عليه وسلم انطلاقا من القرآن الكريم، وهذا ما يمكن من توفير ثروة معرفية لها علاقة بالتفسير الموضوعي من جهة، وبدراسة السيرة النبوية والشمائل المحمدية من جهة ثانية، كما أن لها علاقة كذلك بالدراسة الأصولية الاستنباطية، حيث تنتقل من استنباط الحكم الشرعي إلى استنباط الحدث التاريخي، المتعلق بالسيرة النبوية تحديدا.

تم بحمد الله تعالى وقوته.